1- الدّين

سلمى حسب الله

قبل أن أقص عليكم قصتي أود أن أعرفكم بنفسي أنا حامد مهران كنت أعيش في الريف ولكنني الآن انتقلت للمدينة بحثًا عن العمل وبالمناسبة أنا رجل متزوج، فقد انتقلت أنا وزوجتي إلى منزل في منطقة لا أود ذكر اسمها وغير مسموح لي بذلك حيث إنها تراقبني الآن.

تفاجأت أنا وزوجتي بأن منزلنا يقع بالقرب من المقابر وقد حاولت زوجتي بشكواها المستمرة أن ننتقل لمنزل آخر ولكن ما باليد حيلة، وكأن كل قرش تأخذه يدي مقدر له أن يطير.

مضت ليلتنا الأولى بسلام، وكأنها أرادت أن نطمئن أو أرادت أن تخدعنا ما كنا لندرك أن ذلك هو ما يطلق عليه هدوء ما قبل العاصفة.

في ليلة غامضة وبعد أن وجدت عملًا بتلك البنزينة المشئومة التي لا يميزها شيء سوى أنها قريبه جدًا لمنزلي، وجدت شاحنة نقل كبيرة تسير بسرعة مهولة لتنحرف عن الطريق وتصطدم بسيارة صغيرة.. صدمة هُزت لها الأرض، انقلبت السيارة في الهواء عدة انقلابات ثم رست هامدة على الأرض، بعد أن هُشمت.

وقفت صلدًا أمام ما حدث وكأنني أصبت بشلل تام بجسدي، وبعد أن تحركت قدماي دلفت داخل غرفتي الخاصة في البنزينة وتناولت هاتفي لأتصل بالشرطة.

عدت للخارج واتجهت ناحية السيارة، لعلي أستطيع أن أساعد ذلك المسكين الموجود داخلها، ولكنني لم أجد سوى امرأة عجوز نحيلة الوجه قد أصاب الشيب شعرها بأكمله كانت مغمضة عيونها وفجأة رأيتها تنظر لي وقد جحظت عيناها ويسيل منهما الدماء وكأنها تتوعد لي.

لا تكاد صورتها تفارق مخيلتي حتى الآن.

قاطعني صوت لرجل أجش عن ذلك الموقف المرعب قائلًا لي:

أنت من اتصل بمركز الشرطة أليس كذلك؟!

قلت بصوت متلعثم بسبب ما رأيته قبل قليل مشيرًا للشاحنة دون أن أنظر:

- نعم أنا وذلك هو الحادث وهناك امرأة عجوز بداخل السيارة.

نظر الضابط لأمناء الشرطة ثم عاود النظر إلي قائلًا: أين ذلك الحادث؟!

نظرت للطريق لم أجد شيئا لا الشاحنة ولا السيارة ولا العجوز ذا الرأس الشايب أراد الضابط أن يحتجزني بتهمة البلاغ الكاذب وإزعاج السلطات، فما كان عليَ إلا إنني همست له بأنني أريد أن أقص عليه ما حدث، استجاب الضابط لفضوله القاتل وبعد ما انتهيت شرد الضابط لبعض من الوقت ثم نظر إلي في دهشة قائلاً:

- نعم أنا أتذكر ذلك الحادث ولكن كيف؟!

قاطعته قائلًا: كيف ماذا؟!

وكانت الكارثة في قوله أن ذلك الحادث وقع بالفعل ولكن منذ عام تقريبًا ولكنها لم تكن عجوزا بل كانت امرأة ثلاثينية حتى أن قدميها قطعت في ذلك الحادث وتوفت على الفور.

انصرف الضابط بعدما عفا عني فأخذت هاتفي لأعود للمنزل بعد ذلك اليوم الأسود، علمت زوجتي بما حدث وظلت تشكو وتصرخ بأنها تريد العودة للريف، بعد أن احترق دمي بسبب ما قالته صرخت بها حتى أن عروق رقبتي كادت تنفجر قائلاً:

- أنا فقير لا أمتلك سوى فقري الدائم وذلك المنزل إيجاره رخيص للغاية وتلك البنزينة لا أحد يعمل بها سواي لأنها على طريق سفر وزوارها قليلون من أين آتي لكي بالمال؟، إننا نحتاج للعمل وذلك المنزل بشدة لأجل ابننا الذي تحمليه في أحشائك إننا نحتاج لكل قرش لأجله صدقيني.

ثم ربت عليها مكملًا: فلتصبري قليلًا أرجوكي.

***

استيقظت في سواد ليل عارم علي صوت حفيف شجر مخيف لأجد مقبض باب الغرفة يتحرك وكأن أحدا يريد الدخول وبعدها صدر صوت دق منتظم على باب الغرفة وخيال أحد يقف في الخارج، لم استفق إلا على صوت زوجتي وهي تناديني: حامد.. حامد..

فتحت عيني فوجدت حبات من العرق تنزلق على جبيني ثم نظرت إلى باب الغرفة فوجدته منغلقًا ولا يوجد به شيء.

عاودت بنظري لزوجتي وطمأنتها وقلت أنه كان كابوسًا فعادت للنوم مره أخرى، أشعلت سيجارة وبعد انتهائها سمعت صريرا لباب الغرفة وكأن أحدا يفتحه بوجس شديد شعرت بأن هناك عينين تنظران لي وتراقبني عن كثب.

ارتعبت وأغمضت عيني ودلفت بداخل الغطاء ثم سمعت صوتا ضئيلا وكأنه يهمس لي قائلًا: "لا تقلق سأكتفي بأخذ قلبك فقط".

لم أجد مفرًا من ذلك سوى أن أذهب إلى النوم..

قبل الذهاب إلي عملي ذهبت لصديقي يعمل في مركز الشرطة ويعرف الصغيرة والكبيرة بداخله، انتظرته في الخارج وقلت له ما حدث وأنني أريد نسخة من محضر تلك الحادثة.

مضت ساعة في الداخل ثم عاد بالنسخة المرادة حتى أنه لم يأخذ مني قرشا واحدا لأنه يعلم بظروفي الصعبة.

أنا فقط أردت أن أعرف من هي؟! وماذا تريد مني؟!

***

عدت لعملي وبدأت بالقراءة في أولى صفحات المحضر فوجدت صورتها على غلاف المحضر ولكنها في عمر الثلاثين ولكنني متأكد أنها هي، علمت أنها كانت تعمل دجالة وتقوم بتحضير الأرواح والأعمال، وفي ذلك الحادث كانت في شهورها الأولى من الحمل، وفجأة وأنا أقرأ وجدت بقع دماء تقطر على الورق نظرت إلي السقف فوجدتها بدون أقدام وتزحف على السقف بواسطة أيديها تنظر لي وتقترب مني نعم إنها تقترب الآن.. الآن.. لم أتحمل هول المنظر فسقطت مغشيًا عليَ.

استفقت بعد إغماء دام قرابة نصف ساعة ولكنني وجدت نسخة المحضر ممزقة إلى قصاصات صغيرة على الأرض ليس فقط كذلك بل وجدتها محروقة أيضا، عُدت للمنزل بعد يوم شاق ومرعب ودلفت داخل غرفتي لأذهب في سبات عميق.

استمعت إلي صوت مخالب تحفر في أرض الغرفة بسرعة شديدة، نظرت فوجدتها تقف عند حافة السرير وظهرت أنيابها عندما ابتسمت لي ابتسامة مرعبة قائلة: أصبحت تعرفني الآن.

شعرت أن قلبي سينفجر من كثرة النبض وبصوت مرتعش قلت: لا أريد شيئًا ابتعدي عني فقط.

أشارت بإحدى مخالبها حتى أنني وجدت شعرا كثيفا يكسو أيديها واقتربت مني قائله: سأعطيك مالًا وجاهًا مقابل أن تعيد لي ولدي.. قبل أن تختفي وكأنها لم تكن.

مضى قرابة شهرين منذ رؤيتها لي في ذلك اليوم أحيانًا كنت أراها في المنزل وأسمع صراخها وهمساتها في نومي.

ولكنني أصبحت لا أبالي بها كنت ارتعب بالفعل فمن منا قد رأى شبحًا ولم يخف؟!، ولكنني لم أعلم أنني سألجأ إليها في يوم من الأيام "سألجأ لمن تريد نزع قلبي فقط".

فصلوني عن عملي في البنزينة لسبب غير معروف حتى أنني تفاجأت بذلك، بحثت عن عمل في أكثر من جهة ولم أجد، كانت لدي مصاريف كثيرة من أهمهم ولادة زوجتي وملابس ولدي الصغير.

احتجت للمال بشدة فلم يعد معي مالا حتى للقمة عيش صغيرة حتى أن زوجتي أصبحت ضعيفة وريقها دائمًا جافا.

اتصلت بصديقي في مركز الشرطة لأسأله عن قبر تلك المرأة وأجابني عن ذلك المكان.

تمتمت في سري قائلاً: لم تعد تأتيني إذًا سأذهب لها الآن.

وكأنها تعلم عن زيارتي وجدتها تزحف بجانب قبرها تجاهي وتحدق لي بعينين واسعتين يظهران بكحل أسود غير عادي، وكأنها أنهت قلم الكحل فقط علي عينيها، أدارت رقبتها حتى كدت أستمع إلي كسر عظامها ثم عاودت النظر إلي قائله: عُدت إلي لأنهم فصلوك عن عملك صحيح؟!

إذًا هي من قامت بذلك لألجأ إليها

ثم تابعت قائلة: لا تنظر خلفك

نظرت خلفي فوجدت زوجتي جالسة على شكل القرفصاء يملأ الدم أيديها وأرجلها، نعم كأنها تلد

وفجأة أخذت تجز بأسنانها على لحم ابننا الرقيق ومن ثم ابتلعته

عُدت لأرى العجوز فوجدتها في وجهي مباشرة قائلة: أريد ولدي

وفجأة هدأ المكان واختفى كل شيء ولكنني وجدت حقيبة ع قبرها توجهت ناحيتها بوجس شديد وفتحتها فوجدت أموالا كثيرة أغلقتها ووضعتها في قبضتي بإحكام وهرولت للخارج.

***

مضى تقريبًا أربعة أشهر أصبحت فيها أملك منزلًا جديدًا وسط المدينة وأصبحت أدير أعمالًا كثيرة، لم تعد تظهر لي بتاتًا حتى أنني لم أوفي بوعدي معها وكيف أوفيه؟! كيف أعيد مضغة دم ماتت في جسد امرأة متوفية وبات الرمل يكسوها؟، ظننت أن المال سيتلاشى فور ابتعادي عن ذلك المنزل البغيض ولكن الحقيقة أنني بدأت في استثماره.

باتت قصة مرعبة حدثت لي في الماضي وانتهت، أحضرت زوجتي مستلزمات طفلنا ولم يكن علينا سوى انتظاره فقط.

ذهبت إلى حمام غرفتي لكي أحلق لحيتي الكثيفة وفجأة وجدت زجاج نافذة الحمام قد حُطم وأصبح فتاتا صغيرة كسكر أبيض، تساءلت هل يوجد أطفال يلعبون في الطريق حتى الساعة الثالثة صباحا.. ولكن قطع سؤالي مصباح الحمام الذي ارتعشت إضاءته فجأة.

نظرت لمرآة الحمام غير مبال فوجدت عبارة مكتوبة بالدماء "لقد وجدتك".

زاد ارتعاش الضوء حتى انفجر المصباح شعرت وكأن أحدا ينظر لي وهمسات صغيرة تسمعها أذني وهناك من يتجه نحوي نعم أسمع خطواته، خرجت بسرعة فوجدت زوجتي مكتفة الأيدي في زوايا السرير.

وتصرخ وتبكي نعم إنها تلد الآن!!، لم أسألها عن الشخص الذي كتفها، لم أسألها لأنني أعلم من هي.

***

حملت زوجتي وأحضرت مفاتيح سيارتي لأصل إلى المشفى كنت أريد الدخول معها ولكن منعني الطبيب وجعلني أنتظر خارج غرفة العمليات، بعد قرابة النصف ساعة وجدت شخصا يقترب مني قائلًا: أنت ماذا تفعل هنا؟!

بصوت مرهق قلت: أنتظر زوجتي التي تلد في الداخل

ثم أكملت بنبرة مرجوة: أرجوك أريد أن أطمئن عليها في الداخل

نظر إلي في دهشة وعجب من أمري: أنا الطبيب المسئول عن ولادة زوجتك!!

أخفق قلبي بشدة وانقبض وبصوت مبحوح قُلت: إذًا من في الداخل؟

دلفت الممرضة مهرولة للداخل ثم عادت بوجه مقلق وصوت حزين ظاهر قائلة: البقاء لله لقد توفت زوجتك الآن.

وقبل أن أتفوه بكلمة وجدت العجوز تحمل ولدي في لفافة قماش واختفت عبر الجدار.

صرحت بتلك القصة لطبيب نفسي لم يصدقني ولو حتى بالكذب فاحتجزني في مصحة عقلية وبعدها علمت أن أموالي ومنزلي وكل شيء قد اختفى، هل أنا مجنون؟ نعم لقد جُننت بالفعل وقررت أن أكتب قصتي قبل أن انتحر لعلها تصل إلى أحدهم ويُصدقني.

خاصة عندما رأيتها بالأمس وهي تحمل ولدي قائلة بصوت مرعب: لقد كنت مدينًا لي وكان عليك أن تسدد دِيّنك.

***